السيرة والوجود (قراءة في المنجز النقدي المغربي)

د . حميدي بلعباس

كلية الآداب جامعة – معسكر – (الجزائر)

ملخص :

يندرج هذا البحث في مجال (نقد النقد)، حاولنا من خلاله قراءة رواية "الخبز الخافي" لمحمد شكري، من خلال المتون النقدية المغربية التي توفرت لدينا، مبرزين بذلك: مدى اهتمام النقاد المغاربة بالسيرة الذاتية؛ كون كاتبها يملك الرغبة في الحديث عن الذات، وعدّته في ذلك: حياة كاملة، يتخذ تُجاهها مواقف معينة. إنّها لحظة البوح الهامس، الذي يلجأ إليها تارة، وطريقة للمخاتلة يسلكها تارة أخرى، مما تستدعي استكشافها حضور قارئ حاذق؛ له القدرة على استجلاء حياة صاحبها في ثنايا النصوص الأدبية.

كلمات مفتاحية: السيرة الذاتية والوجود، المتن النقدي العربي.

تعتبر رواية "الخبز الحافي"، لمحمد شكري، من الروايات التي استطاعت – بجرأتها – أن تحدث زلزالا قويا في مجال الإبداع الروائي العربي، الأمر الذي شجع النقاد على ولوج مجاهيلها. ويعتقد الناقد (محمد برادة) أنّ رواية "الخبز الحافي" من الكتابات التي "كسرت قواعد اللياقة والتكتم على الكلام غير المباح، التي كانت تطبع السير الذاتية العربية السابقة"1. فقد دأبت الكتابات العربية على التخفي، وعلى عدم البوح؛ نتيجة المحاذير

التي اعترضت طريقها، كالدين، والعرف، والتقاليد، والعادات.. فهي رواية جريئة ارتدت – بصراحتها – على النمطية، والشكل المألوف المعتاد في الكتابة؛ بل يكاد هذا النص أن "يكون وحيدا في جرأته وذاتيته؛ يفضح ذاكرة غير معلنة، وكتابة عربية مستترة بالخديعة والزيف؛ فهو يلقي ضوءا باهرا ، مفعما بأسئلة الكتابة على المناخ القمعي الكامن في عمق التجربة الأدبية وممارستها"2، تجاوزت جميع الأسوار والمحاذير الاجتماعية، وتمردت على كلّ تقاليد القبيلة.

لقد عاش الأديب (محمد شكري) حياة قاسية، ومع ذلك، سعى إلى أن يتعلم، ويقرأ، ويكتب، ويتحدّث عن المجتمع، الذي ظلمه، وقسا عليه، مقابلا سلطة "القهر" بسلطة "الكتابةّ.

تفتتح رواية "الخبز الحافي" سيرتها بتصوير سنوات الجوع والفقر والحاجة، ولا أجد وصفا مماثلا للوصف الذي وصفه بها الناقد (محمد برادة): ".. وبالفعل، كتب شكري سيرته، وكأنما كتبها من وراء القبر؛ إذ لا يستطيع الالتحام من جديد بذاته الأولى، التي عاشت القسوة والرعب والمهانة، ومنذ ذلك، انتقلت السيرة الذاتية، عندنا من: رد الاعتبار، إلى "أنا" باحثة عن اعتراف اجتماعي، إلى التوغل في متاهات الغرابة المقلقة، التي نحسها كلما حاولنا أن نفهم الذات بظواهرها، ومكونات اللاوعي الفاعلة خلسة في حياتنا"3.

غير أنّ مسألة التوفيق في كتابة رواية (سير – ذاتية)، تراعي خصوصية هذا الجنس الجديد، أمر عسير؛ إذ – كثيرا – ما أسقطت مثل هذه الكتابات روائيين كبار، أو انتهت بهم كتابتهم إلى الفشل. وفي المقابل، بقي النص السير – ذاتي نصا "لا يعرف الاستقرار والجمود؛ ذلك أنّه يخضع لمنطق خاص، هو منطق السؤال والجواب؛ حيث النص يجيب على سؤال يضعه المخاطب، وبتعدّد المخاطبين، تتعدد الأسئلة والأجوبة"4.

في مقاربة للناقد (صدوق نور الدين) لهذه الرواية، يشير هذا الباحث إلى أنّ إبداع الأديب يشكل ظاهرة أدبية متميزة؛ كونه "فتح نافذة المسكوت عنه، فيما يتعلق بقضايا المحرم: الجنس، وسلطة الأب، والدين، وغيرها.."5، حملت كتاباته معها الكثير من الصراحة، والجرأة على البوح، إلى حد الفحش والبذاءة، وعلى الرغم من ذلك، فإنّ هذا النوع من الكتابة لم تشهده الكتابات الروائية العربية من قبل، ومن ثمّ، فإنّ (محمد شكري)، صاحب الثلاثيته السير– ذاتية: "الخبز الحافي "، "زمن الأخطاء"، و"وجوه"، لم ينصف كأديب، حيث تجاهل النقاد – ومثلهم الأدباء – "قوته الأدبية الإبداعية، التي لفتت النظر منذ نشر أولى تجاربه القصصية، على المستوى العربي، عبر مجموعته القصصية: "مجنون الورد"، و"الخيمة"، بالإضافة إلى روايته "السوق الداخلي"، التي لم تحظ بتلق نقدي فاعل وموضوعي"6.

ويبدو أن البعد الذاتي قد تحكّم في الكثير من أعمالنا الفكرية، إذ نلفي لجوء الكثير من النقاد إلى الانتقائية في تناولهم للإنجازات الأدبية، وهو توجّه فيها "الكثير من ذاتية الناقد، ورؤيته للأمور في أحوال تذوق النص، بالحكم له أو عليه، وفي المواقف المتخذة منه في حال التفسير أو التأويل"7. وتظل الإيديولوجيا – بذلك – عنصرا أساسيا في تقويم الإبداعات الأدبية، ومثل هذه الحتمية لا تصبّ إلا في مصب بخس الإبداع حقه.

ومن هنا، فقد قاد هذا المنطق الناقد: صدوق نور الدين، إلى دعوة النقاد إلى ضرورة إعادة قراءة تجربة (محمد شكري) الإبداعية، قصد إنصافه كي يتبوأ مكانته اللائقة؛ ذلك أنّ هذه الرواية قد حظيت بما لم تحظ به أية رواية مغربية؛ كونها وطدت علاقة النقاد بأدب السيرة الذاتية، منطلقا من فرضية مؤداها: "أنّ كلّ سيرة ذاتية هي كتابة روائية، غير أنّه لا يمكن اعتبار كل كتابة روائية سير ذاتية"8. لكنّ هذا المذهب الذي ذهب إليه هذا الناقد، قد يثير الكثير من الأسئلة، وسنتعرض إليها لاحقا.

تساءل (صدوق نور الدين)، عندما ظهر الجزء الثاني من السيرة الذاتية، للكاتب، من خلال "الخبز الحافي"، عن علامة "التنصيص"، التي حملها الجزء الأول "سيرة ذاتية روائية ": هل كان من الضروري تأكيد الصفة (الروائية)، عوض الاكتفاء بميثاق التعاقد المتضمن لقاعدة الحد والتوجيه في عملية تلقي الأثر: سيرة ذاتية؟. وفي هذا الصدد، يعتقد ناقدنا أنّ المحدّد (سيرة ذاتية)، كفيل بتجنيس هذا الإبداع، وخلق حوار مع هذه السيرة. ويستحضر رأي الناقد (محمد برادة)، في تقديمه لرواية "زمن الأخطاء"، قائلا: "بعد قراءتي الأولى لـ "زمن الأخطاء"، لفت نظري ابتعادك عن الصوغ الروائي لسيرتك، مثلما فعلت في "الخبز الحافي". ولجوؤك إلى كتابة شذرية تحمل عناوين فرعية"9.

أما الرأي الثاني، فهو لـ (حافظ صبري)، حيث يقول فيه: ".. ويعلن النص، منذ البداية، عن بعض سمات حداثته تلك، عندما يؤكد أنه (سيرة ذاتية روائية)، وهذا ما يميزه عن السيرة الذاتية (Autobiography)، بمعناها التقليدي المعروف، وعن الصورة الذاتية (Autoportrait)، بنزعتها الانتقائية، وإن استخدم تقنياتهما معا ليخلق سيرته الروائية (Fictional Autobiography)، التي يلعب فيها السرد، والتخييل دورا أساسيا"10. وهذا الموقف المتّخذ من هذا الانجاز – في نظر الناقد صبري حافظ– يشير إلى أن المشروع السردي لا ينتمي إلى عالم السيرة الذاتية؛ بمعناه التقليدي، قدر انتمائها إلى استراتجيات الخطاب الروائي"11.

إنّ السيرة الذاتية – حسب صدوق نور الدين – هي الكتابة عن الحياة، عبر أهم مراحلها ومحطاتها "يتحقّق ذلك، بالاستعادة والتركيب، والاعتماد على التخييل، بغية الوصول إلى تثبيت المتداول، وما ليس كذلك، في حياة الاسم العلم"12. ويبدو أن الكتابة في السيرة الذاتية حياةٌ، وتعبيرٌ عن الواقع المقموع، وعن المسكوت عنه. وبعد

قراءته لنماذج أدبية، يذكر منها: "الأيام"، "في الطفولة "، "الخبز الحافي"، "زمن الأخطاء"، يستوقفه حس أدبي رفيع، يوجزه في ما يلي13:

– اعتماد الجملة الشعرية دقة الوصف، والحرص على تحديد الزمن، وبراعة في التقديم والتأخير. هذه الخاصيات – في نظر الناقد– قد تصنع بلاغة السيرة الذاتية، مما يجعل السبيل، للوصول إلى هذه الذروة، من الصعوبة بمكان، لذا، قلّما يجترئ الكتّاب العرب على كتابة السيرة الذاتية، كونها: فنّا يحتاج إلى مراس كبير، ويفرض طقوسا مهيبة من الصراحة، والجرأة، والصدق. هذا الاستثناء صنعه – في نظر الناقد – محمد شكري، وعبد الله العروي؛ كونهما ارتقيا بهذا الفن، وبرعا فيه.

وفي موضع آخر، يعتبر الناقد (صدوق نور الدين) الكثير من الكتابات المغربية نصوصا سير ذاتية، و"إن لم يعترفْ الكتاب بذلك صراحة؛ فلجؤوا – في ذلك – إلى نوع من الانتقائية، والتصرف في الأحداث، ومحاولة صرف انتباه القارئ عن ذواتهم بشتى أساليب التمويه والمراوغة"14. كذلك، نجد الكثير من ملامح الأدباء في إبداعاتهم، مما يجعل الحدود الفاصلة بين الفن الروائي، والسيرة الذاتية واهية جدا.

في اتجاه مغاير، يثير الناقد التونسي (محمد الباردي)، مصادرة الناقد (صدوق نور الدين)، التي أوردناها في هذا المبحث، والقائلة: بـ "سِرْذاتيّةِ" كلّ كتابة روائية15، معلقا على رأي (حافظ صبري)، الذي تضمنته رواية "الشطار"، قائلا: "إنّ الاختلاف يرتبط بتشكل السيرة الذاتية، بمعنى آخر، إنّه يمسّ تقنية الكتابة والتأليف، التي لا يمكن أن تكون، من ناحية، إلا روائية، ومن أخرى، لا يمكن أن ينجزها إلا اسم علم اعتباري؛ يمتلك كفاءة الانجاز الأدبي"16، ثم يخلص الناقد إلى اتخاذ حدود فاصلة للسيرة الذاتية ، قوامها العناصر التالية17:

– إنّ السيرة الذاتية كتابة روائية.

– إنّ السيرة الذاتية جنس أدبي.

– إنّ للذاكرة دورا في عملية الاستحضار، والامتداد بالسيرة، وهي قاعدة قد تنطبق على البعض.

ينضاف إلى ذلك – حسب محمد الباردي – الموقف الاعتباطي (الدغمائي) المتّخذ من (صدوق نور الدين)، ذلك "أنّ هذه المصادرة، تقصي، من هذا الجنس الأدبي، عددا هاما من النصوص، وقد لاحظنا في بحثنا، أن أغلب النصوص السيرية، لا تحتذي شكل الكتابة الروائية، خاصة إذا اتخذنا من "الخبز الحافي" أنموذجا لهذه الكتابة – كما أوحى بذلك المؤلف – في شيء من التعصب الذي لا مبرر له18. إنّ جنس السيرة الذاتية العربي، لا يزال بصدد التأسيس، لذا، فمن البديهي أن تتعدّد أشكاله، وتتنوع.

ويشير الناقد (محمد الباردي)، في نهاية مقاربته، لما توصّل إليه (صدوق نور الدين)، وأنّ نجاح السيرة الذاتية منوط بروائية هذا الجنس الأدبي، فإنّ "أنجح السير الذاتية في الأدب العربي الحديث، هي تلك التي كتبت بأسلوب روائي، ابتداء من "أيام" طه حسين، مرورا بـ "ثلاثية" حنا مينه، و"الخبز الحافي"، وصولا إلى "ثلاثية" نوال السعداوي. ونجاحها يكمن في: درجة تلقيها، وطبيعته"19.

لقد أثارت هذه النصوص الكثير من التساؤلات، الأمر الذي حدا بالنقاد إلى الخوض في مساءلتها؛ لاستجلاء ما خفي منها؛ فتغدو السيرة الذاتية، عند الناقد (محمد الباردي)، "حكيا استعاديا نثريا، يعرض بأشكال سردية متنوعة، يقوم به شخص واقعي، معبّرا عن وجوده الخاص والعام، وذلك، عندما يركّز على حياته الفردية والجماعية، وعلى تاريخ شخصيته: الجزئي، والكلي"20. هذا الإقرار بالنوع، يجعل الكثير من الانجازات تبدو سيرا ذاتية أصيلة، ومع ذلك، فهي تؤثر الخفاء والتخفي.

ثم نجد آراء الناقد المغربي (محمد الداهي)، في مقاربته لروايات محمد شكري، وقد صبّت في الاتجاه نفسه، حيث تعرّض إلى التجربة الإبداعية لهذا الأديب، والإسهامات التي بذلها من أجل إعطاء معنى للوجود، ورصد التجربة الذاتية. لقد أصدر محمد شكري ثلاثة أعمال سير ذاتية "تتضافر فيما بينها؛ ترصد تجربة الذات في مواجهة صروف الدهر، وتقلبات الذات، وتبرز المجهودات التي بذلتها لاستكشاف مجاهيل الكينونة، وإعطاء معنى للوجود، والتخلّص من براثن الجهل، والفقر المدقع، ومواكبة الأحاسيس والمواقف والاستيهامات في فترات متعاقبة من زهرة العمر"21.. لقد استطاعت هذه الكتابات أن تضع محمد شكري – باقتدار – على الخريطة الأدبية، وترسم – بجرأة، وبعفوية – معاناة الذات، وانشطاراتها.

لقد أحدثت هذه الكتابات صدمة عند المتلقي العربي؛ كونها تجرأت على أمور كثيرة؛ إذ "ليس – ثمّة — نص، في أدبنا الحديث، أشد جرأة في انتهاكه للمحرمات اللغوية، والاجتماعية، والجنسية، من سيرة "شكري" تلك"22. وكأنّ (محمد شكري)، تعمّد انتهاك المحرمات اللغوية، والاجتماعية، والنفسية، والجنسية، على حد تعبير (صبري حافظ).

وفي موضع آخر، يعتبر الناقد (محمد الداهي) الجزء الأول، والجزء الثاني من رواية شكري "تجربة مثيرة، وغنية، وفريدة، وقاسية؛ عرف صاحبها كيف يشخصها بـ "البراءة الأدبية"، وكيف يخرج من مختلف أطوارها منتصرا، متحديا، متشبثا بحب الحياة"23. إنّ كتابات محمد شكري – في نظر الناقد – لا تقدّم للقارئ عبرة، أو قدوة لاقتفاء آثارها، وإنما هدفها يكمن في: عرضها لتجربة حياتية، تغري المتلقي العربي– ومثله الأجنبي – بقراءتها، وبهذا الاعتبار، استطاعت بعض الروايات أن تقتنص عناصر لقراءة المجتمع ومتخيله، أغنى وأعمق مما أنجزه الباحثون والإيديولوجيون24.

ويعتبر الناقد (محمد الداهي) رواية "الخبز الحافي" امتدادا لعملي الكاتب "السابقين"، فتكون هذه الأعمال الثلاثة قد أرّخت لذات واحدة، على الرغم من التفاوت الزمني بينها، بحيث ظهرت هذه الأعمال في فترات متفاوتة (1982- 1992- 2000)، مما انعكس على وتيرة المشروع السير ذاتي عند الكاتب، وأثّر في شكله الفني، وطريقة استثمار المادة الحكائية وعرضها"25.

لقد اتخذ الجزء الأول – في نظر الداهي – صبغة "قصة"؛ ترصد هجرة أسرة شكري من: قرية "بني شيكر" إلى مدينة "طنجة"، هروبا من المجاعة، وبحثا عن الخبز الكثير، كغيرها من الأسر والعائلات المغربية26، ولم توفّق الأسرة في مسعاها، لتصطدم بواقع مرّ، دفع بالطفل "محمد" إلى ولوج عالم الشغل صغيرا، من أجل كسب لقمة العيش، وقد امتهن الكثير من المهن، وقد جاب عديد المدن (طنجة، تطوان، وهران).

لقد استطاع الطفل، في خضم هذا المجتمع المتناقض والقاسي، أن يفرض وجوده، وأن يقتحم عالم الكبار، ومغامراته الطائشة (الجنس، الشذوذ، الخمرة، السرقة،..)، كما كان للرسالة "الوصية"، التي كتبها له "حسن الزيلاشي" أثرها الكبير في نفسية شكري، الأمر الذي حفّزه إلى التسجيل – لأول مرة – بالمدرسة، وكان عمره – آنذاك – عشرين سنة، ثمّ تغدو الكتابة والقراءة، بعدما عرف طريقهما، هاجسا مؤرقا، استطاع بواسطتهما ولوج عالم الإبداع.

أمّا الجزء الثاني، فقد جمع ما بين المحكيات السير – ذاتية، بحيث عرضت "بتقتير وتكثيف، وبسخرية وإيحاء – أحيانا –، لتقيم قطيعة بين حياة الصعلكة، والتشرّد، والقذارة، وحياة التحصيل، والتعليم، والأناقة، وبين هامش المؤسسة الاجتماعية، وطقوسها وقوانينها المتواضع عليها"27.

يسلط محمد شكري، في الجزء الثالث، الأضواء على شخوص اقتسم معهم الحياة بطنجة: (فاطي: ساقية بحانة غرناطة، عبد الهادي، الذي عاد مبتور اليدين من الحرب الهند – الصينية، بابا دادي: صاحب مطعم وحانة بطنجة، ماجدولينا، حمادي القمار، وغيرهم..). ويرى الناقد (محمد الداهي) أنّ في هذا العمل، "يبرز حذق محمد شكري في إضفاء طابع التخييل على تجربته الشخصية، وترك أحلامه تصنع عالمها دون قيد أو مراقبة، بالمواءمة بين الذاتي والموضوعي، وبين الحلم واليقظة، وإثارة أسئلة حول الكتابة عن الذات، والمفهوم التقليدي للسيرة الذاتية.."28. لقد تحولت الكتابة عند شكري إلى فعل إبداعي خلاّق، حين بدأ البحث عن الذات، بطرح الكثير من الأسئلة، وبكثير من الفضول المعرفي المركز.

ولا يغادر الناقد (محمد الداهي) روايات محمد شكري، حتى يثير الانتباه لأسلوب هذا الروائي المتميز، والذكي – في الوقت نفسه – ولطريقته في عرض الأحداث، واحتفائه بالواقع المعيش؛ فلقد بنيت هذه الإستراتيجية، في الجزء الأول والثاني – حسب الناقد – على ما يلي:

– عرض محمد شكري لتجربة استثنائية ،وجريئة، تغري القراء للاستمتاع بمغامرات السارد، حيث إنّ هذه التجربة لا تقدم عبرة أو موعظة أو قدوة، وأما هي تجربة شخصية فقط.

– سعي شكري إلى تذليل المعجم القاعدي، وذلك بوضع هوامش لشرح بعض المفردات أو استدراك بعض الأحداث أو التعليق على بعضها، والغرض من هذا الصنيع هو: توسيع دائرة القراء.

– توظيف شكري للغة بسيطة؛ يستمدها من الصياغة الشفوية، ومن رواسم الكلام اليومي؛ لإضفاء الشرعية، والواقعية على شخوصه.

وعلى أساس هذه الاعتبارات، يعتبر النقاد المغاربة – خاصة محمد الداهي –، من خلال تتبعهم للمشروع السير ذاتي للكاتب، أنّ محمد شكري قد حقّق طفرة نوعية في كتابة السيرة الذاتية، مرتقيا بها من: مستوى "الشهادة" إلى مستوى "التخييل".

الهوامش:

[1]– برادة محمد: فضاءات روائية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط.1، 2003، ص: 74.

[2]– رضوان محمد: محنة الذات بين السلطة والقبيلة (دراسة في أشكال القمع في الرواية العربية)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2002، ص: 106.

[3]– المرجع السابق، ص: 77.

[4]–كيليطو عبد الفتاح: الأدب والغرابة، دار الطليعة، بيروت، ط.3، 1997، ص: 44.

[5]– صدوق نور الدين: انغلاق الدائرة (دراسات في الرواية العربية)، أزمنة: للنشر والتوزيع، الأردن، 2008، ص: 115.

[6]– المرجع نفسه، ص: 115.

[7]– يقطين سعيد، وفيصل دراج: آفاق نقد عربي معاصر، دار الفكر، دمشق، ط.1، 2003، ص: 166.

[8]– صدوق نور الدين: انغلاق الدائرة (دراسات في الرواية العربية)، أزمنة: للنشر والتوزيع، الأردن، 2008، ص: 116.

[9]– شكري محمد: زمن الأخطاء ،المغرب ،ط:1 ،مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، ط.6، 1992، ص: 09.

[10]– صبري حافظ: البنية النصية لسيرة التحرر من القهر (ضمن كتاب: الشطار، لمحمد شكري، دار الساقي، بيروت، ط: 5، 2004، ص: 225.

[11]– المرجع نفسه، ص: 225.

[12]– صدوق نور الدين: انغلاق الدائرة (دراسات في الرواية العربية)، أزمنة: للنشر والتوزيع، الأردن، 2008. ص118

[13]- المرجع نفسه، ص118.

[14]- منور أحمد: رواية السيرة الذاتية في الأدب الجزائري المعاصر (ابن الفقير نموذجا)، مجلة المساءلة، اتحاد الكتاب الجزائريين،ع.1، 1991، ص: 185.

[15]- ينظر: صدوق نور الدين: السيرة الذاتية (قضايا الكتابة والتلقي حول تجربة محمد شكري)، مجلة نيسان، عمان، 2004، ص: 40.

[16]- المرجع نفسه، ص: 41.

[17]- صدوق نور الدين: انغلاق الدائرة (دراسات في الرواية العربية)، أزمنة: للنشر والتوزيع، الأردن، 2008، ص: 178 .

[18]- الباردي محمد: عندما تتكلم الذات (السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث)، دمشق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005، ص: 178.

[19]- المرجع نفسه، ص: 178.

[20]- نفسه، ص: 179.

[21]- الداهي محمد: الحقيقة الملتبسة (قراءة في أشكال الكتابة عن الذات)،شركة النشر والتوزيع (المدارس)، الدار البيضاء، ط.1، 2007، ص: 109.

[22]- صبري حافظ: البنية النصية لسيرة التحرر من القهر (ضمن كتاب: الشطار، لمحمد شكري، دار الساقي، بيروت، ط: 5، 2004، ص: 224.

[23]- المرجع السابق، ص: 109.

[24]- برادة محمد: فضاءات روائية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط.1، 2003، ص: 100.

[25]- الداهي محمد: الحقيقة الملتبسة (قراءة في أشكال الكتابة عن الذات)،شركة النشر والتوزيع (المدارس)، الدار البيضاء، ط.1، 2007، ص: 110.

[26]- الشاوي عبد القادر: سلطة الواقعية (مقالات تطبيقية في القصة والرواية)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005، صص: 273 - 304.

[27]- المرجع نفسه، ص: 110.

[28]- الداهي محمد: الحقيقة الملتبسة (قراءة في أشكال الكتابة عن الذات)،شركة النشر والتوزيع (المدارس)، الدار البيضاء، ط.1، 2007، ص: 111.